المغربان الأدنى والأوسط
تحت الحكم الزيري

د. بن سادات نص الدين، جامعة وهران

مقدمة:

إن ظهور قبائل صنهاجة على مسرح الأحداث في بلاد المغرب خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري، يطرح العديد من التساؤلات حول نسب هذه القبائل ثم المناطق التي استقرت فيها قبل أن تصبح مؤهلة لحكم بلاد المغرب نيابة عن الخلافة الفاطمية في مصر، ولذلك كان من الضروري تناول هذين الموضوعين ليشكلا تمهيدا لتناول أهم فترات الدولة الزيرية منذ قيامها – أي مع رحيل المعز لدين الله إلى مصر.

1 – بوادر الظهور السياسي لصنهاجة بني زيري:

ينتسب الزيريون إلى قبيلة صنهاجة البربرية، ولعل أهم ما يمكن أن نسجله هنا هو كون المغرب الأوسط المجال الذي تحركت فيه قبائل صنهاجة خلال الفترة العبيدية وبتحديد أكثر دقة أن الامتداد الصنهاجي كان فيما بين تاهرت وبلاد الزاب وشملت المراكز الحضارية التالية: مليانة والمدية والجزائر وحمزة.

مع ظهور الفاطميين في إفريقية، إعتنق بنو زيري الدعوة الجديدة،كان قائدهم زيري بن مناد من كبار رجالات الفاطميين إلتحق بهم سنة (323هـ/935م)، قام هذا الأخير بإنقاد عاصمة الخلافة الفاطمية (المهدية) بعد أن حاصرها الخوارج بقيادة أبي يزيد.

ذكر المقريزي أن المعز قبل رحيله إلى مصر استقدم جعفر بن علي بن حمدون وعرض عليه أن يتولى إمارة المغرب نيابة عنه، ولكن جعفر اشترط عليه لقبول هذا المنصب شروطا تتيح له الاستقلال الداخلي. ..فأقصاه عنه، واستقدم بلكين بن زيري بن مناد وعرض عليه ولاية المغرب، ولكن بلكين قال له :"يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد الرسول صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي وأنا بربري؟ قتلتني يا مولاي بغير سيف ولا رمح "[1] وما زال به المعتز حتى قبل ولاية المغرب نيابة عنه فولاه أمر إفريقية والمغرب

توجه المعز إلى قابس وقال لبلكين وهو يودعه :" إن نسيت شيئا مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء :" لا ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحدا من إخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوص بالحضر خيرا [2].

أثارت تولية بلكين إمارة المغرب غيرة منافسه جعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب، فشق على الفاطميين عصا الطاعة، ورحل إلى الأندلس ملتجئا إلى الحكم المستنصر،كما ثارت عليه قبيلة زناتة القائمة بدعوة المروانيين في الأندلس وخرج عليه أهل تاهرت.

يمكن تفسير استقرار صنهاجة في هذه المنطقة على الصحراء برغبتها في السيطرة على التجارة الصحراوية مع بلاد السودان والذي تمثل منطقة الزاب محاورها الكبرى، إلا أن هذه الرغبة لقيت خصما عنيدا أمامها، ويتعلق الأمر بالقبائل الزناتية وعلى، رأسها مغراوة التي كانت تشارك صنهاجة بعض هذه المواطن.

ويبدو أن الغلبة كانت لصنهاجة بدليل ما أورده ابن خلدون حول فراغ المغرب الأوسط من زناتة مع رحيل العبيديين إلى مصر، وهو ما لعب فيه الحلف الصنهاجي العبيدي دورا كبيرا.

2 –التطور السياسي لدولة بني زيري في إفريقية:

نشير في البداية إلى أن المعز لدين الله، أقدم خلال تقليد بلكين بن زيري بن مناد ولاية المغرب على تغيير إسمه البربري بلكين باسم يوسف، وكناه أبو الفتوح بدل حبوس ولقبه سيف الدولة، حتى يكون من وراء ذلك كله فتوحات وتوسيع نفوذ حتى الأندلس.

أولا. دولة أبي الفتوح يوسف بن زيري:

إن أهم ما يميز دولة أبي الفتوح يوسف بن زيري (361-373هـ/972-984م) أنها كانت مرحلة غلب عليها الطابع العسكري، إذ مع بداية حكمه سار على رأس جيش كبير إلى تاهرت، فدخلها وخربها، وهو ما أشار إليه ابن حوقل بقوله :" وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر فقراء بتوا ثر الفتن عليهم ودوام القحط، وكثرة القتل والموت"[3].بعدها مضى أبو الفتوح إلى تلمسان ليقضي على جموع الزناتيين فحاصرها ودخلها[4].

لم تكن مدينتا تاهرت وتلمسان سوى محطتين فقط في طريق الحملة الزيرية، حيث تواصلت العمليات العسكرية الصنهاجية الزناتية خارج المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، لكنها لم تدم

طويلا وتوقفت بعد أن وصل كتاب المعز إلى أبو الفتوح يوسف ينهاه عن التوغل في المغرب ويدعوه للعودة إلى القيروان.

لكن على الرغم من الطابع العسكري لفترة حكم يوسف فإن ذلك لم يمنعه من الاهتمام بالتنظيم الإداري لدولته، وسعى إلى ذلك عبر تعيين عماله على الولايات، وإدخال تعديلات على حدودها، خاصة منها الولايات الغربية، حيث ألغى ولاية المسيلة وضم الجهة الجنوبية منها إلى تاهرت، والجهة الشمالية إلى أشير، واتخذ من مدينة المنصورية قرب القيروان قاعدة حكمه.

في سنة(367هـ/978م) عقد العزيز بالله ليوسف بن زيري ولاية طرابلس وسرت وأجذابية زيادة على ولاية المغرب، فاستخلف بلكين عليها يحي بن خليفة المليانى واستفحل ملك بلكين بعد أن استولى على فاس سنة(368هـ/979م)، وقتل عامليها محمد بن أبي علي بن قشوش، وعبد الكريم بن ثعلبة، واستعمل على فاس محمد بن عامر المكناسي، ثم افتتح سجلماسة، وقبض على ابن حزر أمير مغراوة وقتله، وسار بعد ذلك إلى أصيلا، ومنها إلى شالة مركز برغواطة.

توفي أبو الفتوح سنة (373هـ/ 983م) في طريق عودته إلى إفريقية, وذلك في بلدة وارلنغو الواقعة بين سجلماسة وتلمسان.

ثانيا: دولة أبي الفتح المنصور بن بلكين:

كان أبي الفتح المنصور بن بلكين واليا بأشير عندما بلغه خبر وفاة أبيه، فخلفه على الإمارة سنة(374هـ/985م)، وقلده العزيز بالله أمر إفريقية والمغرب. ولقد ارتبط عهد المنصور بن يوسف بحادث يحمل دلالة كبرى ميزت سياسته الداخلية والخارجية، وسيكون له انعكاس على حال المغربين الأدنى والأوسط، ويتعلق الأمر بما صرح به وهو يستقبل وفدا يضم شيوخ مدينة القيروان الذين وفدوا عليه بمدينة أشير لتعزيته في وفاة أبيه بقوله: "إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا آخذ الناس إلا بالإحسان، ولست من يولي بكتاب ولا يعزل بكتاب، ولا أحمد في هذا الملك إلا الله, ويدي وهذا الملك ما زال في يد آبائي وأجدادي ورثناه عن حمير[5].

لعل في هذا الكلام دلالة واضحة على تمرد زيري على الفاطميين في مصر، وأكد على ذلك بتوليته لأخيه يطوفت على أشير وعمه أبي البهار على تاهرت، وهو ما يحمل خروجا واضحا عن وصية المعز لدين الله.

في سنة(374هـ/985م) أمر المنصور أخاه يطوفت بالخروج على رأس جيش كثيف إلى مدينتي فاس وسجلماسة لاستردادهما من الزناتيين، فلقيه زيرى بن عطية المغراوى الملقب بالقرطاس أمير فاس فهزمه ورجع إلى أشير واقصى المنصور بعدها عن غزو المغرب وزناتة[6].

والجدير بالذكر أن في عهد المنصور قامت ثورتان: الأولى قام بها أبو الفهم الخراساني الداعي سنة(376هـ/987م) وأيدته قبائل كتامة، فحاربه المنصور وخرب بلاد كتامة سنة(378هـ/989م)، إذ في مدينة سطيف أنزل الجيش الزيري هزيمة كبرى بجموع كتامة، لم يجد معها أبو الفهم سوى الفرار والاعتصام بأحد الجبال القريبة منها، غير أن ذلك لم يمنع المنصور من القبض عليه وقتله، وبذلك جعل المنصور حدا لثورة أبي الفهم وتدخل الفاطميين في الشؤون الداخلية لدولته.

والثانية ثورة أبي البهار إلى المغرب، حيث دخل في طاعة المنصور ابن أبي عامر، فدخل عسكر أبي الفتح المنصور مدينة تاهرت، وقتل من تصدى لهم من أنصار أبي البهار، ثم أمنهم بعد ذلك وولى على تاهرت أخاه ياطوفت وعاد إلى أشير.

إن عدم استقرار وضعية الدولة في أيام أبي الفتح المنصور لم تمنعه من اتباع سياسة الاعتدال والتي لمسناها من اتجاهين:

- على المستوى الجبائي: لجأ المنصور إلى التخفيف من عبئ الجبايات على الرعية، فقام بإسقاط الديون المستحقة على أهل البادية وكانت مالا جليلا[7].

- على المستوى المذهبي: لم يخف المنصور توده إلى إباضية الجريد، فقد قام باستدعاء أحد كبار شيوخهم، وهو أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي إلى مدينة القيروان واستقبله استقبالا يليق بمقامه وأغدق عليه، ونفس العناية لقيها إباضي آخر وفد عليه وهو حنين بن ويحبتين، وانعكست العلاقات الودية إلى حد سمح فيه المنصور الزيري للإباضية بعقد مناظرات بمدينة القيروان تميزت بحرية التعبير وإبداء الرأي[8].

وكانت وفاة المنصور في سنة(386هـ/996م)، ودفن بقصره الجديد بظاهر المنصورية.

ثالثا. دولة نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور:

بعد وفاة المنصور خلفه ابنه باديس على إفريقية والمغرب الأوسط وكان لا يتجاوز من العمر 12سنة، فأقر عمه يطوفت على ولاية تاهرت، وعمه حماد على ولاية أشير.

وفي سنة (389هـ/999م) زحف زيري بن عطية في جموع هائلة من زناتة إلى مدينة تاهرت وحاصرها، فكتب يطوفت بن يوسف إلى ابن أخيه باديس يطلب منه المدد، فسير إليه جيشا يقوده ابن أبي العرب الكاتب، وانظم إليه عسكر آخر بقيادة حماد بن يوسف، وكان زيري بن عطية قد عسكر بجيش في موضع يقال له آمسار يقع قريبا من تاهرت، فخرج الجيش الصنهاجي إليه، وكانت معركة حاسمة انتهت بهزيمة الصنهاجيين، وانسحب يطوفت مع بن أبي العرب وحماد إلى أشير وتركوا محلاتهم ومضاربهم، ودخل زيري ابن عطية مدينة تاهرت.

لما بلغ خبر الهزيمة باديس خرج لمحاربة زيري ابن عطية سنة (389هـ/999م)، ولما وصل إلى طبنة بعث في طلب فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي، فبعث يعتذر له ويسأله أن يكتب له سجلا بولاية طبنة فكتبه له، ثم رحل باديس إلى أشير فانتهز فلفل فرصة رحيله عنه وأغار على ما حوله من النواحي، ثم واصل باديس زحفه حتى وصل إلى المسيلة فبلغه رحيل زيري بن عطية من تاهرت إلى فاس، فعاد إلى أشير ودخل عمه يطوفت تاهرت[9].

والجدير بالذكر أن باديس كان يستقدم عمه حماد ويسايره حتى حين ليطفئ الثورات، وفي سنة (395هـ/1006م) خلفه لمحاربة زناتة، واشترط عليه حماد ولاية المغرب الأوسط وكل ما يتم فتحه على يديه فقبل الشرط، وفي سنة (398هـ/1007م) إختط حماد مدينته الجديدة القلعة وكان ينزل بها وبأشير.

هكذا ظل حماد في المغرب الأوسط يقاتل زناتة وينتصر عليها في أكثر من مرة فعظم صيته، وبعد تعيين المعز باديس سنة (403هـ/1012م) وليا للعهد لأبيه، أراد أن يختبر حماد فأرسل إليه بأن يتنازل له عن مدينة قسنطينة والمدن المجاورة لها فأبى حماد ذلك، ودخل معه في حرب أسفرت عن تأسيس الدولة الحمادية.

3- انقسام الدولة الصنهاجية وظهور الدولة الحمادية:

يرجع الفضل في قيام الدولة الحمادية إلى حماد بن بلكين، وقد ارتبط وجود هذه الشخصية في المغرب الأوسط بالصعوبات التي واجهت باديس من أجل إخضاعه ونشر النفوذ الزيري به، غير أن الأمور قد سارت على غير ما أراد الأمير الزيري، حيث أدرك باديس أن من أوكله هذه المهمة – أي حماد – يسعى للاستقلال، بل إن حماد لم يكتف بذلك وأعلن نبذه للفاطميين، ودعا للخلفاء

العباسيين في سنة (405هـ/1015م)[9]، عندئذ عزم باديس على محاربة عميه لتبدأ مرحلة أخرى من مراحل الصراع بين المغربين الأدنى والأوسط.

إن مما لا شك فيه أن بناء القلعة يعتبر بمثابة البداية الحقيقية لدولة صنهاجية جديدة غدت تحمل إسم الدولة الحمادية، عندئذ عزم باديس على محاربة عمه حماد وخرج شخصيا لقتاله فانتصر عليه حتى حاصره في القلعة، وبينما كان حماد محاصرا توفي باديس وخلفه ابنه المعز، وسار المعز لقتال حماد سنة (408هـ/1018م) وأخرجه من باغاي، وجرح حماد واستطاع أن ينجو بنفسه.

مال حماد بعد هذه الواقعة إلى السلم وأرسل إلى المعز يعرض عليه طاعته، فتم الصلح بينهما واستبقى المعز حماد على ملكه السابق.

إبتداءا من سنة (408هـ/1018م) تفرعت صنهاجة إلى دولتين، الدولة الزيرية التي حكمت المغرب الأدنى، والدولة الحمادية التي تولت الحكم في المغرب الأوسط، ولعل هذا الاستقلال يكون أمر طبيعي، إذ أن المناطق التي كان يحكمها بنو زيري عند رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر كانت تعد مهمة ثقيلة لأنها تظم المغربين الأدنى والأوسط، فاضطر المنصور إلى أن يعهد بولاية المغرب الأوسط إلى أخيه حماد بن بلكين، فما كان من هذا الأخير إلا أن طمع في هذه الولاية بنفسه، فلما حاول باديس استرجاع هذه الولاية اعترضه حماد، وخرج عن طاعته وطاعة الفاطميين.

4- العلاقات السياسية الزيرية الحمادية:

ذكرنا فيما سبق أن العلاقات السياسية الزيرية الحمادية في منطقة المغربين الأدنى والأوسط كانت حادة، فقد كانت بواعث الخصومة بين الطرفين قوية حالت دون أي التقاء أو تقارب بينهما، وكان من الطبيعي أن يبحث الطرفان المتصارعان عن علاقات سياسية ودية سلمية تضمن الاستقرار في المنطقة.

إن تذبذب العلاقات السياسية الزيرية الحمادية فرض عليهما اتخاذ موقف واضح إزاء هذه العلاقات بين المسالمة أحيانا، والصدام العسكري أحيانا أخرى.

أولا. العلاقات العدائية: مثل قيام الدولة الحمادية بداية فعلية للصراع بين الدولتين الصنهاجيتين المتجاورتين، وعلى الرغم من الأخطار التي كانت تواجه الطرفين معا، فإن لا أحد منهما كان يطمئن إلى سياسة الطرف الآخر حتى في أوقات السلم

كان آل زيري يبدون الولاء للعبيديين حتى نهاية حكم باديس بن المنصور، وبدخول حماد قطع كل صلة بهم وادعى صراحة ولاءه لبني العباس[10]، واتخذ كتعبير صريح عن ذلك بإظهار المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي، وهو عمل ينم عن إعلان استقلال سياسة دولته عن بني زيري ما دام هؤلاء تابعين لمصر.

لقد ساهمت هذه الخطوة الحمادية الجريئة إلى اندلاع حرب في المغربين الأدنى والأوسط بين باديس وحماد، وعلى إثر ذلك جهز باديس حملة لقتال حماد وخرج فيها بنفسه، وأسفرت المواجهة بينهما عن هزيمة قوات حماد عند وادي شلف، وعلى إثر هذه الهزيمة تم عقد الصلح بين حما د والمعز بن باديس.

لكن على الرغم من ذلك ظل العداء قائما وظل ولاء الحماديين للعباسيين، وقد أشار ابن خلدون إلى أن آخر أمراء بني حماد يحي بن عزيز (515-547هـ/1121-1152م) عمد إلى ضرب السكة باسم الخليفة العباسي أبي عبد الله محمد بن المستنصر بالله الملقب بالمقتفي لأمر الله وذلك سنة (543/1148م) [11].

- **تدخل بني زيري في شؤون الحماديين بالمغرب الأوسط:**

بدأ تدخل الدولة الزيرية في شؤون المغرب الأوسط مع إعلان حماد الاستقلال بدولته، وقد أشرنا سابقا إلى أن الأمر قد وصل إلى حد القيام بحملات عسكرية[12]، بعدها بدأ بنو زيري في استغلال الظروف لصالحهم، وبدءوا في إثارة المصاعب في وجه جيرانهم كلما سمحت الفرص بذلك، وتجدر الإشارة إلى حدثين هامين استغلتهما الدولة الزيرية للتدخل في شؤون الدولة الحمادية:

يتعلق الأول بتمرد أبي يكنى بن محسن بن القائد بن حماد ضد الأمير المنصور سنة (487هـ/1094م)، حيث بعث أخاه ويغلان إلى تميم بن المعز طالبا منه مساندته مقابل ولاية بونة، وقد استجاب الأمير الزيري لعرض أبي يكنى، فبعث ابنه أبا الفتوح إلى مدينة بونة، مما اضطر المنصور إلى تجهيز جيش وتسييره إلى هذه المدينة وظل محاصرا لها مدة سبع شهور حتى تسنى له دخولها عنوة، وتم اعتقال أبي الفتوح وإرساله إلى القلعة.

بعدها واصل الجيش الحمادي زحفه نحو قسنطينة، ويضطر على إثرها أبا يكنى إلى الفرار عنها إلى جبال أوراس، وهناك يتم القبض عليه وقتله، وبذلك أسدل الستار عن محاولة زيرية للتدخل في شؤون بني حماد دون أي مكسب.

يتعلق الحادث الثاني باستيلاء الأسطول الزيري على مركب الأمير الحمادي يحي بن العزيز كان في طريقه من الأسكندرية إلى بجاية وهو محمل ببضائع ثمينة مختلفة وهدية من الخليفة الفاطمي إلى الأمير الحمادي كان ذلك في سنة (536هـ/1141م).

- التدخل الحمادي في المغرب الأدنى:

بعد أن أعلن حماد استقلاله عن الخلافة الفاطمية بدأ في تحريض أهل تونس على الفتك بأتباع المذهب الاسماعيلي المقيمين بها، وقد لقيت هذه الدعوة استجابة من أهل المدينة، فاندلع الصراع بين السنة والشيعة.

تطلع بنو حماد بعد ذلك إلى حكم مدينة تونس عندما تقلص نفوذ الدولة الزيرية في إفريقية نتيجة الزحف العربي بتوالي خروج عدة مدن عن طاعتهم، وأمام تراجع نفوذ المعز بن باديس عن مدينة تونس وفد من شيوخها على الأمير الحمادي الناصر بن علناس في مدينة القلعة حوالي سنة(450هـ/1058م) راجين منه اختيار وال من قبله على مدينتهم وقد أكد ابن عذارى أن الناصر لم يلب طلبهم، ورأى من الفطنة أن لا يتدخل في شؤونهم على الأقل بصورة وقتية، واقترح على شيوخ تونس أن يختاروا شيخا منهم لإدارة شؤونهم ويقال أنهم قدموا أحدهم فاستعفف فقام الأمير الحمادي النـــاصربتعيين عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان عاملا له على مدينة تونس [13].

لم يتحرك بنو زيري نحو مدينة تونس إلا بعد معركة سبيبة[14]، حيث استغلوا انشغال الحماديين بمعالجة آثار هزيمتهم ليقوم تميم ابن المعز سنة (458 -460 هـ/1065-1067م) بإخضاع مدينة تونس التي كان يحكمها عهدئذ عبد الحق بن خراسان صنيعة ابن حماد، واستمر الناصر بعد نهضته من هزيمة سبيبة في الاعتماد على الإثبج[15]، فتمكن سنة (460هـ/1067م) من الاستيلاء على الأربس[16] ثم القيروان، ولكن رأى من الخطورة بمكان البقاء فيها مدة طويلة فقفل راجعا إلى القلعة المعرضة أكثر من اللزوم لهجومات الهلاليين.

ثانيا – المظاهر الودية للعلاقات السياسية الزيرية الحمادية

لا يمكن القول أن العلاقات السياسية بين الدولتين الصنهاجيتين قد اقتصرتا على الخلاف والعداء، وإنما تخللتها فترات من السلم فرضت عليهما السعي نحو إيجاد تقارب بينهما، ويمكن حصر مظاهر هذه العلاقات السلمية فيما يلي:

إتفاقيات الصلح: من الجدير بالتذكير أن المصادر التاريخية لا تمدنا بمعلومات كافية عن مضامين وشروط الاتفاقيات، حيث لم تتعد تعهد الجانبين بعدم معاداة الآخر، أو على الأقل عدم إثارة المصاعب في وجه الآخر.

وفي هذا الإطار تم إبرام صلح بين حماد وبني زيري سنة(408هـ/1017م) حيث وجه حماد الذي عاد إلى القلعة، رسولا إلى المعز بن باديس يسأل العفو ويطلب الصلح، فأجابه المعز إن كنت على ما قلته فأرسل ولدك القائد إلينا، فعاد جواب حماد أنه إذا وصله كتاب أخيه إبراهيم بالمعاملات التي بينهم أنه قد أخذ له عهد المعز بعث ولده القائد، فتم له ذلك وبعث الأمير الحمادي إبنه القائد إلى إفريقية حاملا هدايا جليلة[17] من أجل التفاوض مع الأمير الزيري، وما كان من المعز هو الآخر إلا أن أغدق عليه العطايا، كما يقول ابن خلدون نفس قيمة الهدايا التي جاء بها، و لم يتردد في قبول دعوة حماد إلى الصلح.

على إثر إبرام إتفاق الصلح أصدر المعز مرسوما يقضي بتعيين القائد عاملا على المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج[18]، ببلاد زواوة[19]، ومقرة[20] ودكمة[21] وبلزمة وسوق حمزة (البويرة)، و لم يكن الأمر يتعلق باقتسام المغرب الأوسط بين الأب وابنه، وبمقتضى الاتفاق المبرم مع حماد اعترف المعز بهذا الأخير أميرا مستقلا على المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت، وكل أعمال المغرب الأوسط التي سيتمكن من فتحها، ومن المرجح أن يكون الأمير القائد هو ولي العهد الذي سيخلف أباه بعد وفاته [22].

لقد جاء هذا الصلح بعد فترة عصيبة في تاريخ العلاقات بين الدولتين، تميزت بإعلان الحرب بينهما، ابتداءا من الأمير الزيري باديس بن المنصور الذي توفي وهو يحاصر القلعة بعد أن تم له النصر على القوات الحمادية في شلف سنة (406هـ/1015م)[23] ليواصل ابنه المعز الحرب ضد حماد عبر مواجهات عنيفة، إنتهت بهزيمة بني حماد، مما اضطرهم للبحث عن سبل للخروج من هذه الأزمة [24].

لم يكن عقد الصلح بين الأميرين نتيجة ظهور نية حماد الطيبة، والمتمثلة في استجابته للشرط الزيري بإيفاد ابنه القائد كرهينة لدى الأمير الزيري، بل إن الظروف التي كانت تعيشها الدولة الزيرية نفسها، ورغبتها في إخماد جبهة المغرب الأوسط كانت وراء قيام هدنة بين الدولتين والتي استمرت مدة طويلة، حتى تاريخ إعلان القائد بن حماد تبعيته للخلافة الفاطمية في مصر سنة

(441هـ/1069م) معاكسا بذلك المعز بن باديس الذي كان بصدد الإجهاز على مظاهر ولائه لها.

في سنة (469هـ/1077م) كانت بإفريقية مجاعة ووباء عظيم مات فيه من الناس خلق كثير، وقد أدرك تميم والناصر أن صراعهما سيؤول لا محالة إلى إضعاف الإمكانيات الصنهاجية المتدنية إلى أقصى حد لصالح بني هلال الذين ما فتئت قوتهم تتعاظم.

ولذلك في سنة (470-471هـ/1077-1078م) أبرم الخصمان اتفاقية الصلح التي لا نعرف مقدماتها ولا بنودها، ومرة أخرى يظهر أن ظروف كلتا الدولتين ساهمت بقدر كبير في تقاربهما[25].

بلغت دولة حماد ذروة قوتها بعد بناء بجاية، وقد زادت في تعزيز تلك القوة بلا شك اتفاقية الصلح المشار إليها سابقا، والتي سيحترمها الطرفان إلى نهاية عهد تميم، لم لا وقد بلغت الدولة الحمادية من القوة أنذاك ما جعلها تتفوق على بني زيري الذين أنهكتهم الغزوة الهلالية.

علاقات المصاهرة:

من الدلالات البليغة المعنى على سيادة السلم والوفاق بين الدولتين الزيرية والحمادية في بعض الفترات، وجود علاقة المصاهرة بين الأسرتين الحاكمتين، إذ عقب إبرام اتفاق الصلح بين المعز بن باديس وحماد بن بلكين سنة (408هـ/1017م) عزز الطرفان الصلح المبرم بينهما بالمصاهرة، ففي رجب(415هـ/1024م) زوج المعز أخته أم العلو لابن عمه الأمير عبد الله بن حماد الصنهاجي، وقد احتفل بزفافهما في مواكب فخمة [26].

وفي سنة (470هـ/1077م) زوج تميم بن المعز إبنته بلارة للناصر بن علناس "الذي حمل ثلاثين ألف دينار فأخذ منها تميم دينارا واحدا ورد الباقي، وسير ابنته إليه من المهدية في عسكر، وأصحبها من الحلي والجهاز ما لا يحد[27]"، فكان هذا القرن مباركا مثمرا.

وفي سنة (509هـ/1115-1116م)كان زواج العزيز ابن المنصور الحمادي من بدر الدجى بنت يحي بن تميم الزيري، ولقد أثبتت سياسة المصاهرات مدى أهميتها وفاعليتها في توطيد العلاقات وتحقيق السلم أحيانا.

تبادل السفارات:

لم يكن من الممكن الاعتقاد بعدم وجود سفارات بين الأسرتين الزيرية والحمادية، إذ أن أساس تحقيق السلم يكمن في تبادل السفارات.

وتشير الروايات التاريخية عقب الصلح الذي كان بين بني زيري وحماد أن القائد بن حماد كان يتردد على المعز بن باديس في إفريقية، وكان هذا الأخير يغدق عليه بالعطايا، ما يؤكد على استمرار التواصل بين الدولتين.

وقد أخبرنا مؤرخ المعز الرسمي ابن شرف أن الفقيه الورع أبا القاسم بن أبي مالك الذي كان يقيم بضواحي قلعة بني حماد قد قدم إلى القيروان سنة (438هـ/1047م) بوصفه سفيرا للقائد بن حماد، وقد أثرت فصاحته وفطنته في السلطان الذي أعجب به شديد الإعجاب، وطوال مدة إقامته بالقيروان خلال تلك السفارة عاش ذلك المبعوث من ماله الخاص[28].

كما تولى السفارة أيضا محمد بن البعبع، وقد أرسله محمد بن المعز إلى القلعة استجابة لرغبة الوزير الحمادي أبي بكر بن أبي الفتوح في عقد الصلح بوحي من الأمير الناصر بن علناس[29]، وفي ذلك يقول النويري: "ولما كانت هذه الواقعة بين بني حماد والعرب، وبلغ الناصر ما نال ابن عمه تميم من الألم والحزن، وكان وزيره أبو بكر بن أبي الفتوح محباً في دولة تميم، فقال للناصر: يا مولاي، ألم أشر عليك ألا تقصد ابن عمك، وأن تتفقا على العرب. فلو انفقتما لأخرجتما العرب. فصدقه الناصر ورجع إلى قوله، وقال له: أصلح ذات بيننا. فأرسل الوزير رسولاً من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح. فقبل تميم قوله، وأراد أن يرسل رسولاً إلى الناصر، فاستشار أصحابه. فاتفقوا على إرسال محمد بن البعبع"[30]، غير أن السفير الزيري سمح لنفسه بتجاوز الهدف من مهمته، وأشار على الأمير الحمادي ببناء مدينة بجاية، واتخاذها مقرا جديدا للدولة نظرا لقرب موقعها من إفريقية، وهو مايسهل رغبته في الاستيلاء على المهدية[31]، ولما سمع المعز بما أقدم عليه هذا السفير قام بقتله بمجرد أن وفد عليه.

خاتمة: ما يمكن أن يقال في هذا الجانب أن صفاء العلاقات ظل حبيس تبادل السفارات دون أن يرقى إلى مستوى التعاون أو التحالف لمواجهة الأخطار التي كانت تهدد الجانبين.

الهوامش:

1. المقريزي، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا، دار النشر، القاهرة ص143. المقريزي الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، منشورات مكتبة العرفان، م2، ص158.

2. ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية بيروت 1992ج6، ص318.

3. ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص93.

4. إستطاعت القوات الصنهاجية مطاردة زناتة الذين اعتصموا بمدينة تلمسان، وتمكنت من إخضاع المدينة بعد الحصار الذي ضرب عليها. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص206.

5. النويري،(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، 677-733هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م، ط1.ص317.

6. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص157.

7. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1967م، م9، ص127.

8. صالح باجيه، الإباضية بالجريد، ط1،دار بوسلامة، تونس 1976، ص145.

9. عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، دار النهضة العربية بيروت، 1981م، ج2، ص646.

10. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص301.

11. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 228.

12. الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1974،م4، ص168. السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط4 المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1964، ص437

13. كان على المعز أن يستهل ولايته بتنظيم حملة عسكرية ضد حماد الذي كان بصدد الاستيلاء على المغرب الأوسط، وكانت البداية بأن وجه المعز عمه كرامة بن المنصور إلى أشير سنة 406هـ/1016م لانتداب جنود صنهاجيين والرجوع بهم إلى المحمدية (المسيلة) وبينما كان كرامة في أشير مع الجنود الصنهاجيين والتلكاتيين إذ أتاه حماد في ألف وخمسمائة فارس، فتقدم إليه كرامة بسبعة آلاف مقاتل، فاقتتلوا قتالا شديدا، ورجع بعض أصحاب كرامة إلى بيت المال فنهبوا وهربوا، فتمت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، واضطر كرامة أخيرا إلى العودة إلى إفريقية. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ج1، ص ص190-191. ابن الأثير، المصدر السابق ج9، ص106.

14. ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص315

15. سبيبة ناحية من أعمال إفريقية ثم من أعمال القيروان،وقد وقعت فيها عام 457هـ/1065م المعركة المعروفة بمعركة سبيبة بين بني حماد وحلفائه من صنهاجة وزناتة من جهة ومن جهة أخرى المعز بن زيري والقبائل العربية زغبة ورياح، وانتهت بهزيمة الطرف الأول. ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977،ج2، ص429.

16. الأثبج: يقول إبن خلدون: ‘‘كان هؤلاء الأثبج من الهلاليين أوفر عددا وأكثر بطونا ومن بين بطون الأثبج الكثيرة التي كان لها وجود مؤثر في إفريقية خلال القرن الحادي عشر للميلاد، نذكر دريد. وهم أعز قبائل الأثبج، وعرفوا برئيسهم الذي دخل بهم إفريقية وهو الحسن بن سرحان بن وبرة العبر،ج، ص48.

17. أربس تقع في الجهة الغربية من البلاد التونسية، مدينة وكورة بإفريقية وكورتها واسعة، بينها وبين قيروان إفريقية مسيرة ثلاثة أيام، وبينها وبين باجة مرحلتان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص136.

18. النويري، المصدر السابق، ج1، ص137. ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص ص106 -107.

19. مدينة ساحلية تقع شمال أشير في المغرب الأوسط.البكري،المصدر السابق ص65.الادريسي، المصدر السابق، ص62.

20. لعله يقصد مواطن زواوة البربرية في جبل الونشريس قرب تاهرت. الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، 1989، ج1، ص58.

21. مدينة صغيرة تبعد عن المسيلة بمرحلة وعن طبنة بمرحلة أيضا. البكري المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، ص76.ص51، 144.

22. مدينة صغيرة تقع في نهاية الطريق المؤدي من القيروان إلى قلعة بني حماد، البكري، المصدر السابق، ص54.

23. ابن خلدون،المصدر السابق، ج1، ص158.

24. ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص169.

25. النويري، نهاية الأرب، ج24، ص114.

26. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ج1، ص322.

27. ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص ص 106-107. ابن خلدون، نفسه ج6، ص158.

28. ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص300.

29. عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك، مجموعة حسن حسني عبد الوهاب ج2، ص353. الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص196.

30. ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج1، 339.

31. النويري، نهاية الأرب،ج24، ص124. أبو بكر العربي القاضي، العواصم من القواصم، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية،ط1، 1419هـ،ج1، ص16

32. ابن الأثير، المصدر السابق ج10، ص47.